المحطة

....

دون أن يعنيا به حالة "الهجرة"، والتي اعتبراها اقتلاعاً انهزاميَّاً أو قسريَّاً، فقد كان للسفر حصة كبيرة في الأدب الرحباني الذي يمتَّعنا بصوره وعباراته وأسرار جانبيه المادي والخيالي. فهو الوسيلة لاكتشاف المجهول ولتوسيع رقعة المعرفة وتعميق الإدراك وهو الفرصة لتفادي العجز والنقص والضِّيق وللاحتكاك بالآخرين وتبادل المواد والأفكار والخبرات والثقافات والمواقف ولقتل الملل والضَّجر ولتحطيم قيود المكان واستبعاد اليأس والإحباط.. وهو العالم الفسيح الذي لاحدود له ولا أبواب أو نوافذ.. وهو البحر المترامي الأطراف والسماء الممتدة والخيال الجامح أنَّى اشتهى المرء وكيفما أراد.. في عربات السفر الخيالي نحلق دون سقف ونغوص دون قاع ونمسك الأفق بأيدينا كالخيط الحريري في ليلة ربيعية النسيم. نسافر مجَّاناً ودونما حاجة إلى وثائق أو تذاكر أو زوَّادة طريق وتتلألأ أمامنا صور العالم المغاير لواقعنا فنبتهج ونتوق للوقت الذي يصبح فيه حلمنا حقيقة، فإن حصل هذا اخترعنا سفراً آخر إلى عالم آخر لا يقلقنا بُعْدُه ولا ضبابه.

لولا السَّفر لما كانت الحضارات.. لولاه لبقي الإنسان حبيس الكهوف وأكواخ الغابات. ولولا الخيال لما كان الإبداع والتجدُّد.. ونحن نعيش في بداية القرن الحادي والعشرين يحلو لنا أن نتذكَّر كم من حقيقة اعتدنا عليها الآن وصارت من وسائل حياتنا اليومية التي لا غنى لنا عنها كانت يوماً ما حلُماً؟!

هذا ما أراد الأخوان رحباني قوله من خلال محطَّتهما التي لم تأتِ بالمصادفة أبداً وإنما باختيار ذكيٍّ للغاية لربط السيرورة الحضارية بعنصرين قويَّين هما عمادها: الخيال والحركة.

وإننا، إذ لم يخْبرْنا نص المسرحية عن المكان الذي جاءت منه لعبة المحطة عند وردة، ربما لقلَّة أهميتها، نقتنع مع سعدو بالانطلاق من حقله (آه يا بطاطا) مُقرِّين أنه (في البدء كانت البطاطا) وما أن ظهرت فكرة المحطة حتى خُلق لدى الجميع الحلم الوردي (وْلَيْش ما يجي التّريْن) طالما أن السعادة والرَّخاء سيحلان بوصوله (وْتِغْلا أراضيْنا، وْيِسْعَدْ مين ما كانْ)!.. لابل سيحلُّ معه الانفتاح والوعي (يْوَعِّي السَّهْل الغافي). وهانحن في محطات السيرورة الحضارية كما هما وردة وسعدو، وقد كرَّست الحياة في بيئتهما الحاجة إلى المحطة فأصبحت واقعاً لا جدل فيه، ها نحن نتسلَّح بمقولات التراث الفكري المادي.

يجدر بنا الانتباه إلى عنصر محوري آخر في المسرحية هو وجهة القطار ووجهة السَّفر وموضوع أول أغنياتها وقد كانت عبارتَها الأولى أوَّلُ ما لفظته صاحبة الأطروحة مع وصولها (ليالي الشِّمال الحَزيْنِة). نحن إذن عازمون على السفر باتجاه الشمال. يذكِّرنا هذا العنصر بنزعة السفر شمالاً في بيئة رواية الأديب السوداني الطيب صالح في عام ١٩٦٦ (موسم الهجرة إلى الشَّمال)، دون أن نعني التشابه في البيئتين. غير أن التراث الثقافي الإنساني لحضارات الشمال والجنوب يبرهن بجلاء على التطور الكبير في الوعي والإدراك وفي روح المغامرة والإقدام التي اتَّسَمتْ بها المجموعات البشرية الزاحفة باتجاه الشمال، حاملة خبراتها ورصيدها المعرفي تصقله في "محطات الشمال"، مقارنة مع الآخرين الساكنين في أدغالهم وواحاتهم وصحاريهم، وقد أصابهم الملل والكسل والجمود.

وفي الجانب الخيالي للسفر في مسرحيتنا حريٌّ بنا أن نتذكَّر العلاقة الهامة بين عالم الإبداع الرحباني وعالم الخيال الفسيح الذي بدأ مع الطفلين عاصي ومنصور في حضن جدَّتهما وهي تقصُّ حكاياتها من الخيال في أواخر الثلث الأول من القرن العشرين وانتهى بعاصي في آخر حياته بإبحار لا حدود له في عالمي الكون والنفس البشرية أصاب منه أفولاً اعتصرت بسببه قلوبنا.

....

شخصية الحرامي ملائمة جداً لدراما "المحطة". فوردة بحاجة إلى شخص قادم من عالم رحب الخيال خارج عن المألوف متمرِّدٍ على قيوده يتعدَّى طموحُه الكفافَ بمفهومه المادي ليحلِّق بدون سقف في عالم التمتُّع بالحلم المولود بقلب الحلم. وما من شكٍّ بأن شخصية كهذه بحاجة إلى ممثل بارع يرسم حضورَها بقدرة إيحائية متميزة وببراعة في تقمُّص صاحبها فكان اختيار الفنان الكبير (أنطوان كرباج) موفَّقاً.

يبدأ "قاطع التذاكر" عمله وسط دهشة شرطي البلدية الذي تردد في أن يفعل شيئاً طالما أن هذا الشخص (يلبس بدلة) رسمية، على حد قول وردة، وأوَّلُ مسافر اقترب من نافذة الكشك يطلب تذكرة وردة نفسها مما أثار استغراب قاطع التذاكر (إنتي مْصَدّقة إنِّي قاطع تذاكِر؟) وعلى محاولته إقناعها بأنه حرامي و(كِنْت لاحْقِك تَ إسِرْقِك) تردُّ وردة بخبث وبلغة جازمة (كنت مِفْتِكِر حالَك هيْك)

الحرامي: أنا عم قَطِّع تذاكِر كذب

وردة: ياحرام شو غلْطان. هايْدي أوَّل مَرَّة عم تِشْتْغِل ؟

الحرامي: وْعارف إنُّو التّرين مش جايي

وردة: جـايـي.. جـايـي

ولكِنَّ الحرامي ذي العقل المتوهِّج والجسد السابح في (الهُوِّة اللِّي إسِمْها اللَّيْل) لا يصل في خياله إلى العمق الذي تُبْحر وردة في غياهبه والذي يشترط هنا إحداث الانفصام في شخصية الحرامي قبل الخوض في المرحلة الثانية من المغامرة، وهي بيع التذاكر وانتظار القطار!

وردة: الانتظار خَلَق المحطَّة وْشَوْق السَّفَر جاب التّريْن.

ثم تحادث وردة نفسها بعد أن أيقنت أن وقت الجدّ قد حان:

وردة: قَرَّب الموعِدْ.. والشَّوْق اكْتَمل نِضِج بْإيِّامْنا الصَّيْف
صار المَطَر عَ الشَّبابيك.. واللِّي ناطْرينُو
رَح يْدِقّ الباب

يهزُّ الحرامي رأسَه قالباً شفته السُّفلى وربما كان يرغب في الإطراق لولا أن الحالة تطلَّبت الالتفات فوراً إلى الزَّبائن المصطفين أمامه يطلبون تذاكر السفر

المسافرون: قالُو في مَحَطَّة جْديْدِة قِلْنا حِلي المِشْوار
مُدُن بْعيْدِة وْرِحْلِة سَعيْدِة وْلِنا بالعالَم دار
بَدْنا تَذاكِرْ بَدْنا تَذاكِرْ صارْلُو زَمان النَّاطِر ناطِر

....